الطَّائشة[١]

- ١ -

قال صاحبها وهو يحدِّثني من حديثها :

كانت فتاةً متعلِّمةً ، حُلوةَ المنظر ؛ حُلوة الكلام ، رقيقة العاطفة ، مُرهفة الحسِّ ، في لسانها بيانٌ ، ولوجهها بيانٌ غير الذي في لسانها ، تعرف فيه الكلام الَّذي لا تتكلَّم به . . .

ولها طبعٌ شديد الطَّرَب للحياة ، مُستَرسِلٌ في مَرَحِهِ ، خفيفٌ[٢] طيَّاشٌ لو أثقلْتَه بجبلٍ ؛ لخفَّ بالجبل ، تحسبُها دائماً سَكرَى ، تتمايلُ من طربها ، كأنَّ أفكارَها المرحة هي في رأسها أفكارٌ ، وفي دمِها خَمرٌ . . .

وكان هذا الطَّبع السَّكران بالشَّباب ، والجمال ، والطَّرب يعملُ عملين متناقِضين ، فهو دلالٌ متراجعٌ منهزمٌ ؛ وهو أيضاً جُراةٌ مندفعةٌ متهجِّمةٌ .

وهزيمة الدَّلال في المرأة إنْ هي إلا عمل حَربيٌّ ، مُضْمَرَةٌ فيه الكَرَّة ، والهجوم ؛ وكثيراً ما ترى فيها النَّظرة ذاتَ المعنَيَيْنِ ، نظرةٌ واحدةٌ بها تؤنِّبك المرأة على جراءَتك معها ، وبها أيضاً تعْذلك[٣] على أنَّك لست معها أجرأ ممَّا أنت . . . !

* * *

قلت : ويحك يا هذا ! أتعرف ما تقول ؟

قال : فمن يعرف ما يقول ؛ إذا أنا لم أعرف ؟! لقد أحببت خمس عشرة فتاةً ؛ بل هُنَّ أحببنني ، وفرَّغنَ قلوبَهن لي ، ما اعتزَّت عليَّ منهنَّ واحدةٌ ، وقد ذهبن بي مذهباً ، ولكنِّي ذهبتُ بهن خمسةَ عشَر ! .

قلت : فلا ريبَ : أنَّك تحملُ الوسامَ الإبليسيَّ الأوَّل من رُتبة الجَمْرة . .

---

(١) تقرأ قصة هذه الطائشة في « عود على بدء » من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) « خفيف » : أي : خفيف العقل .

(٣) « تعذلك » : تلومك .

فكيف اسْتَهامَ بك خمسَ عشرةَ فتاةً ؟ أجاهلاتٌ هنَّ ؟ أعمْيَاواتٌ هنَّ . . . ؟

قال : بل متعلِّماتٌ ، مُبصراتٌ ، يَرَيْنَ ، ويُدْرِكن ، ولا تخْطئ واحدةٌ منهنَّ في فهم : أنَّ رجلاً وٱمرأةً قصَّةُ حُبٍّ . . وما خمسَ عشرةَ فتاةً ؟ وما عشرون وثلاثون من فتَيات هذا الزَّمن الحائرِ البائر[1] ، الَّذي كسدَ فيه الزَّواجُ ، ورقَّ فيه الدِّين ، وسقط الحياء ، والتهبت العاطفة ، وانتشر اللَّهو ، وكثرتْ فنونُ الإغراء ، واصطلح فيه إبليس والعلم يعملان معاً . . . وأُطلِقتِ الحرِّيَّة للمرأة ، وتوسَّعتِ المدارسُ فيما تقدِّم للفتياتِ ، وأظهرتْ من الحفاوة بهنَّ أمراً مُفْرِطاً حتَّى أخذْن منها رُبعَ العلم . . . ؟

قلت : وثلاثةُ أرباع العلم الباقية ؟

قال : سيأخذنها من الرِّوايات ، والسِّيما .

علمُ المدارس ؟ ما عِلْمُ المدارس ؟ إنهنَّ لا يصنعْن به شيئاً إلا شهادات هي مكافأةُ الحفظ ، وإجازة النِّسيان من بَعد ؛ أما علمُ السِّيما ، والرِّوايات ؛ فيصنعن به تاريخَهنَّ . . . ورُبَّ منظر يشهده في السِّيما ألف فتاة بمرَّةٍ واحدةٍ فإذا ٱستقرَّ في وَعْيهنَّ ، وطافت به الخواطرُ ، والأحلام ؛ سلبهنَّ القرار ، والوقارَ ، فمثَّلْنه ألفَ مرَّة بألف طريقةٍ في ألف حادثةٍ !

يظنُّون أنَّنا في زمن إزاحةِ العقباتِ النِّسائيةِ واحدةً بعد واحدةٍ ، من حريَّة المرأة ، وعلمها ؛ أمَّا أنا فأرى حرِّيَّة المرأة ، وعلمَها لا يوجدان إلا العقبات النِّسائيةَ عَقبةً بعد عقبةٍ . وقد كان عيبُ الجاهلةِ المقصورةِ في دارها[2] : أنَّ الرَّجلَ يحتالُ عليها ، فصار عيبُ المتعلِّمةِ المفتوحِ لها البابُ : أنَّها هي تحتالُ على الرَّجل ؛ فمرَّةً بإبداع الحيلة عليه ، ومرَّةً بتلقينه الحيلةَ عليها ؛ والغريب في أمر هذا العلم : أنَّه هو الذي جعل الفتاةَ تبدأ الطَّريقَ المجهولَ بجهْلٍ . . !

قلت : وما الطَّريق المجهول ؟

قال : الطَّريقُ المجهول هو الرَّجل ، وإطلاق الحرِّيَّة للفتاة أطلق ثلاثَ حرِّيَّات : حريَّة الفتاة ، وحرِّيَّة الحبِّ ، والأخرى حرِّية الزَّواج ؛ ولمَّا انطلق ثلاثتُهنَّ معاً تغيَّرَ ثلاثتهنَّ جميعاً إلى فسادٍ ، واختلال .

---

(١) « البائر » : الهالك ؛ الذي لا يحقق المقصود منه .

(٢) « المقصورة في دارها » : قَصَره في بيته : حَبَسَه فيه .

أمَّا الفتاة ؛ فكانت في الأكثر للزَّواج ، فعادت للزواج في الأقلِّ ، وفي الأكثر لِلَّهوِ ، والغزل ؛ وكان لها في النُّفوس وَقارُ الأمِّ ، وحُرمة الزَّوجة ، فاجترأ عليها الشُّبَّان اجتراءهم على الخليعة ، والسَّاقطة . وكانت مقصورةً ، لا تنال بعيبٍ ، ولا يَتوَجَّه عليها ذمٌّ ، فمشتْ إلى عيوبِها بقدمَيها ، ومشت إليها العيوب بأقدامٍ كثيرةٍ . . . وكانت بجملتها أمرأةً واحدةً ، فعادت ممَّا ترى ، وتعرف ، وتكابدُ كأنَّ جسمَها امرأةٌ ، وقلبها امرأةٌ أخرى ، وأعصابَها امرأةٌ ثالثة . . .

وأمَّا الحبُ ، فكان حبّاً تتعرَّف به الرُّجولة إلى الأنوثة في قيودٍ ، وشروطٍ ، فلمَّا صار حرّاً بين الرُّجولةِ ، والأنوثة ؛ انقلبَ حيلةً تغترُّ بها إحداهما الأخرى ؛ ومتى صار الأمر إلى قانونِ الحيلة ؛ فقد خرج من قانون الشَّرف ، ويرجع هذا الشَّرفُ نفسه كما نراه ، ليس إلا كلمةً يحتال بها .

وأمَّا الزَّواج ، فلمَّا صار حرّاً ؛ جاء الفتاة بشِبْه الزَّوج لا بالزَّوج . . . وضعُفتْ منزلتُه ، وقلَّ اتفاقه ، وطال أرتقابُ الفتياتِ له ، فضعف أثره في النَّفس المؤنثة . وكانت من قبلُ لفْظَتا (الشابِّ ، والزَّوج) شيئاً واحداً عند الفتاة ، وبمعنىً واحدٍ ، فأصبَحَتا كلمتين متميِّزتين : في إحداهما : القوَّة ، والكثرة ، والسُّهولة ، وفي الأخرى : الضعفُ ، والقِلَّة ، والتَّعذُّر ، فالكلُّ شبَّانٌ ، وقليلٌ منهم الأزواج ، وبهذا أصبح تأثيرُ الشَّاب على الفتاة أقوى من تأثير الشَّرف ، وعاد يُقْنِعُها منه أَخَسُّ بُرهاناتِه ، لا بأنَّه هو مُقْنع ، ولكنْ بأنَّها هي مهيَّأةٌ للاقتناع .

وفي تلك الأحوال لا يكونُ الرَّجلُ إلا مغفَّلاً في رأي المرأة إذا هو أحبَّها ، ولم يكن محتالاً حِيلةَ مثله على مثلها ، ويظلُّ في رأيها مغفَّلاً حتَّى يخدَعها ، ويستَزلَّها ، فإذا فعل ؛ كان عندها نَذْلاً ؛ لأنَّه فعل . . . وهذه حرِّيةٌ رابعةٌ في لغة المرأةِ الحُرَّة ، والزَّواج الحُرِّ ، والحبِّ الحرِّ !

وانظر ـ بعيشك !ـ ما فعلت الحرية بكلمة (التَّقاليد) ، وكيف أصبحت هذه الكلمة السَّامية من مَبْذوءِ الكلام ، ومكروهِهِ ، حتَّى صارت غيرَ طَبيعيَّةٍ في هذه الحضارة ، ثمَّ كيف أحالتها ، فجعلتها في هذا العصرِ أشهرَ كلمةٍ في الألسنة ، يُتهكَّمُ بها على الدِّين ، والشَّرف ، وقانونِ العُرْف الاجتماعيِّ في خوف المَعرَّة[1] ،

---

(١) « المعرة » : المساءة ، والمكروه .

والدَّنيئةِ ، والتصوُّنِ من الرَّذائل ، والمبالاة بالفضائل ، فكلُّ ذلك (تقاليد) .

وقد أخذت الفتيات المتعلِّماتُ هذه الكلمةَ بمعانيها تلك ، وأجْرَيْنها في اعتبارِهنَّ مكروهةً ، وحْشيَّةً ، وأضفْن إليها من المعاني حَواشيَ أخرى ، حتَّى ليكاد الأبُ والأمُّ يكونان عند أكثر المتعلِّمات من « التقاليد » . . . أهي كلمةٌ أبدعتْها الحرِّية ، أم أبدَعها جهلُ العصر ، وحماقته ، وفجورُه ، وإلحاده ؟ أهي كلمةٌ تعلَّقها الفتيات المتعلِّماتُ ؛ لأنَّها لغةٌ من اللُّغة ، أم لأنَّها من لغة ما يُحبِبن ؟

« تقاليد » . . . ؟ فما هي المرأة بدون التَّقاليد . . . ؟ إنَّها البلادُ الجميلةُ بغير جَيْش ، إنَّها الكنزُ المخبوءُ مُعَرَّضاً لأعين اللُّصوص ، تَحوطُه الغفلةُ ، لا المراقبة . هبِ النَّاس جميعاً شُرفاءَ ، متعفِّفين ، مُتصاونين ، فإنَّ معنى كلمةِ : « كنزٍ » متى تركت له الحرِّيَّة ، وأُغْفِل من تقاليد الحِراسة ، أوجدت حرِّيَّته هذه بنفسها معنى كلمة : « لص » .

* * *

قال صاحبنا : أمَّا الفتاة المحرَّرَةُ من (التَّقاليد) . . كما عرفتها فهي هذه التي أقصُّ عليك قصَّتَها ، وهي الَّتي جعلتني أعتقد : أنَّ لكلِّ فتاةٍ رُشْدَين ؛ يَثبت أحدهما بالسِّنِّ ، ويَثبت الآخر بالزَّواج ، ولو أن عانِساً ماتت في سن الخمسين ، أو الستِّين لوَجب أن يقال : إنَّها ماتت نصفَ قاصِر ! ولعلَّ هذا من حكمة الشَّريعة في اعتبار المرأةِ نصفَ الرَّجل ؛ إذ تمامُ شرفِها الاجتماعيِّ أن يكون الرَّجلُ مضموماً إليها في نظام الاجتماع وقوانينه ، فالزَّوجُ على هذا هو تمامُ رُشدِ الفتاة بالغةً ما بلغتْ .

وأساسُ المرأةِ في الطَّبيعة أساسٌ بدنيٌّ ، لا عقليٌّ ، ومن هذا كانت هي المصنع ؛ الذي يُصنعُ فيه الحياة ، وكانت دائماً ناقصةً لا تتمُّ إلا بالآخر الذَّي أساسُه في الطبيعة شأنُ عقله ، وشأنُ قوَّته . . .

واعتبرْ ذلك بالمرأة تَدْرس ، وتتعلَّم ، وتنبُغ ، فلو أنَّك ذهبتَ تمدحُها بوفور عقلها ، وذكائها ، وتُقرِّظها[1] بنبوغها ، وعبقريتِها ، ثمَّ رأتك لم تُلقِ كلمةً ، ولا إشارةً ، ولا نظرةً على جسمِها ، ومحاسنها ـ لتحوَّل عندها كلُّ مدحِك ذمّاً ، وكلُّ

(١) « تقرظها » : تمدحها ، وتثني عليها .

ثنائك سُخريةً ، فإنَّ النُّبوغ ها هنا في أعصاب امرأةٍ تريد أن تعرف مع أسرار الكون أسرارَ كونِها هي ، هذا الكونِ البدنيِّ الفاتن ، أو الَّذي تزعمُه هي فاتناً ، أو الَّذي لا ترضاه ، ولا ترضى أن تكونَ صاحبتَه إلا إذا وجدت من يزعم لها أنَّه كونٌ فاتنٌ ، بديعٌ ، مزيَّنٌ بشمسه ، وقمرِه ، وطبيعته المتنَضِّرَةِ الَّتي تجعل مَسَّه مَسَّ ورَقِ الزَّهر .

مِثل هذه إنَّما يكون الثَّناء عليها ثناءً عندها حينما يكونُ أقلُّه باللِّسان العلميِّ ، ولغته ، وأكثرُه بالنَّظر الفنِّيِّ ، ولغتِه . وهذا على أنَّها عالمة الجنسِ ، ونابغته ، ودليلِ شذوذِه العقليِّ ، والواحدة الَّتي تجيء كالفلتةِ المفْردةِ بين الملايين من النِّساء ، فكيف بمن دونَها ، وكيف بالنِّساء فيما هُنَّ نساءٌ به .

دع جماعةً من العلماء يمتحنون هذا الذي بيَّنتُ لك ، فيأتون بامرأةٍ جميلةٍ نابغةٍ ، فيضعونها بين رجالٍ لا تسمعُ من جميعهم إلا : ما أعقلها ! ما أعقلَها ! ما أعقلها ! ولا ترى في عيني كلٍّ منهم من أنواع النَّظر ، وفنونِه إلا نظرَ التَّلميذِ لمعلِّمِهِ في سنِّ جَدَّته . . . فهذه لن تكون بعد قريبٍ إلا في حالة من اثنتين : إمَّا أن يخرجَ عقلها من رأسها ، أو . . . أو تخرجَ في وجهها لحيةٌ . . . !

(ما أعقلها) ! كلمةٌ حسنةٌ عند النِّساء ، لا يأبَيْنها ولا يذمُمْنها ، غير أنَّ الكلمة البليغةَ العبقريَّة السَّاحرةَ ، هي عندهنَّ كلمةٌ أخرى ، هي : (ما أجملها !) إنَّ تلك تشبه الخبزَ القفار[1] لا شيءَ معه على الخوان ، أمَّا هذه فهي المائدة مُزيَّنةً كاملةً بطعامها ، وشرابها ، وأزهارها ، وفكاهتِها ، وضحِكها أيضاً .

وكأنَّ العقلَ الإنسانيَّ قد غضِب لمهانةِ كلمته ، وما عَرَّها[2] به النِّساء ، فأراد أن يُثبتَ : أنَّه عقلٌ ، فاستطاع بحيلته العجيبة أن يجعل لكلمة : (ما أعقلها) كلَّ الشَّأن ، والخطر ، وكلَّ البلاغة والسِّحر ، عند . . . عند الطِّفلة . . . تفرح الطِّفلة أشدَّ الفرح ؛ إذا قيل : ما أعقلها . . . !

* * *

فقلت لمحدِّثي : كأنَّك صادقٌ يا فتى ! لقد جلست أنا ذاتَ يومٍ إلى امرأةٍ أديبةٍ لها ظَرفٌ ، وجمالٌ ، وجاءت كبريائي ، فجلست معنا . . . وكانت (التَّقاليد)

---

(١) « الخبز القفار » : الخبز غير المأدوم .

(٢) « عرَّها » : سبَّها ، ولطَّخها بالقبيح .

كالحاشية لي ؛ فعلمت بعدُ أنَّها قالت لصاحبةٍ لها : « لا أدري كيف استطاع أن ينسى جسمي ، وأنا إلى جانبه ، أذكِّره أنِّي إلى جانبه ! لكأنَّما كانت لقلبه أبوابٌ يَفتح ما شاء منها ، ويُغلِق » .

قال محدِّثي : فهذا هذا . إنْ إحساسَ المرأة بالعالم وما فيه من حقائق الجمال والسُّرور إنَّما هو في إحساسها بالرَّجل الَّذي اختارته لقلبها ، أو تَهُمُّ أن تختارَه ، أو تودُّ أن تختاره : ثمَّ إحساسِها بعد ذلك بالصُّوَر الأخرى من رجُلِها في أولادها . وحياة المرأة لا أسرارَ فيها ألبتَّة ، حتَّى إذا دخلها الرَّجلُ عرفت بذلك أنَّ فيها أسراراً ، وتَبيَّنت : أنَّ هذا الجسم الآخرَ هو فلسفةٌ عميقةٌ لجسمها ، وعقلها .

قال : وقد جلست مرَّةً مع صاحبة القصَّة ، وأنا مُغْضبٌ ، أو كالمغضَب . . ثمَّ تلاحَيْنا[1] ، وطال بيننا التَّلاحي ، فقالت لي : أنت بجانبي ، وأنا أسألُ : أين أنت ؟ فإنَّك لستَ كلَّك الَّذي بجانبي !

قال : ومذهبي في الحبِّ : الكبرياءُ ، كما قلتَ أنتَ ، غير أنَّها الكبرياءُ الَّتي تدرك المرأةُ منها أنِّي قويٌّ لا أنِّي مُتكبِّر : كبرياءُ الرَّجل إمَّا مهيبٌ مرِحٌ يملك أفراحَ قلبها ، وإمَّا حزينٌ مُهيبٌ يملك أحزانَ هذا القلب .

إنَّ المرأة لا تحبُّ إلا رجلاً يكون أوَّلُ الحسن فيه حُسنَ فهمها له ، وأوَّل القوَّة فيه قوَّةَ إعجابها به ، وأوَّل الكبرياء فيه كبرياءَها هي بحبِّه ، وكبرياءَها بأنَّه رجلٌ ؛ هذا هو الَّذي يجتمع فيه للمرأة اثنان : إنسانُها الظَّريف ، ووَحْشُها الظَّريف !

* * *

قلت : لقد بعدنا عن القصَّة ، فما كان خبَر صاحبتك تلك ؟

قال : كانت صاحبتي تلك تعلم أنِّي متزوِّج ، ولكن إحدى صديقاتها أنبأتها بكبريائي في الحبِّ ، ووصفتْني لها صفةَ الإحساسِ ، لا وصفَ الكلام ، فكأنَّما تنبَّهت فيها طبيعةُ زَهْوِ الفتاة بأنَّها فتاة ، وغريزةُ افتتانِ الأنثى بأن تكون فاتنةً ؛ فرأتْ في إخضاعي لجمالها عملاً تعملهُ بجمالها .

ومتى كانت الفتاةُ مستخِفةً « بالتَّقاليد » كهذه الأديبةِ المتعلِّمة ؟ رأت كلمة

---

(١) « تلاحينا » : تلاحى الرجلان : تنازعا ، وتلاوما .

(الزَّواج) لفظاً على رجُلٍ كلفظ الحبِّ عليه ، فهما سواءٌ عندها في المعنى ، ولا يختلفان إلا في (التَّقاليد) . . .

وعَرَضَت لي كما يَعرض المصارع ـ إذ كانت من الفتيات المغرورات ؛ اللَّواتي يحسبن أنَّ في قوَّتِهنَّ العلميَّة تيَّاراً زاخراً لنهرنا الاجتماعيِّ الرَّاكد ـ فتاةٌ تخرَّجت في مدرسةٍ ، أو كليَّةٍ ، أو جاءت من أوربة بالعالميَّة . . . أفتدري : أيَّةُ معجزةٍ مصريَّةٍ في هذا تُباهي بها مصر ؟

إنَّ المعجزة : أنَّ هذه الفتاة صارت مُدرِّسةً ، أو مُفتِّشةً ، أو ناظرةً في وزارة المعارف ؛ أو مؤلِّفة كتبٍ ، وروايات ، أو محرِّرةً في صحيفةٍ من الصُّحف ؛ ولا يصْغُرَنَّ عندك شأن هذه المعجزة . فهي والله ! معجزةٌ ما دام يتحقَّق بها خروج الفتاة من حكم الطَّبيعة عليها ، وبقاؤها في الاجتماع المصريِّ امرأةً بلا تأنيث ، أو انقلابُها فيه رجلاً بلا تذكيرٍ !

وكيف لا يكون من المعجزات أنَّ تأليف روايةٍ قد أغنى عن تأليف أسْرةٍ ، وأنَّ فتاةً تعيش ، وتموت ، وما ولدت للأمَّة إلا مقالاتٍ . . . ؟

فقلت : يا صاحبي ! دع هؤلاء ، وخذِ الآن في حديث الطَّائشة الخارجة على التَّقاليد ، وقد قلت : إنَّها عرَضت لك كما يعرُض المصارع للمصارع . . .

قال : عرَضَت لي تريد أن تصَرِّفني كيف شاءت ، فنبوْت في يدها[1] ، فزادت إلى رغبتها إصرارَها على هذه الرَّغبة ، فالتويتُ عليها ؛ فزادت إليهما خشية اليأس ، والخيبة ، فتعسَّرت معها ، فزادت إلى هذه كلِّها ثورة كبريائها ، فلم أتسهَّل ؛ فانتهت من كلِّ ذلك بعد الرَّغبة الخياليَّة ؛ التي هي أوَّل العبثِ والدَّلال ، إلى الرَّغبة الحقيقيَّة التي هي أوَّل الحبِّ والهوى : رغبةَ تعذيبي بها لأنَّها متعذِّبةٌ بي !

ثمَّ ردَّتها الطَّبيعة صاغِرةً إلى حقائقها السَّلبيَّة ، فإذا الكبرياء فيها إنَّما كانت خضوعاً يتراءى بالعِصْيان ، وإذا الرَّغبة في تعذيب الرَّجل إنَّما كانت التماساً لأن تنعم به ، وإذا الإصرار على إخضاع الرَّجل ، وإذلاله إنَّما كان إصراراً على تجْرِئتِه ، ودفعِه أن يستبدَّ ، ويملِك ؛ وردَّتها الطَّبيعة إلى هذه الحقيقة النِّسويَّة

(١) « نبوت في يدها » : نفرتُ منها .

الصَّريحة ؛ التي بُنيت المرأة عليها ، شاءت ، أم أبت ، وهي أن تعانيَ ، وتصبر على ما تعاني !

أمَّا أنا ؛ فأحببتها حبّاً عقليّاً ، وكان هذا يشتدُّ عليها ؛ لأنَّه إشفاقٌ لا حُبٌّ ، وكانت إذا سألتني عن أمرٍ ترتاب فيه ؛ قالت : أَجِبني بلسان الصِّدق لا بلسان الشَّفقة . وكانت تقول : إنَّ في عينيها بكاءً لا تستطيع أن تزِيله مع الدَّمع ، وسيقتلها هذا البكاء ؛ الذي لا يُبكي ، وقد اتَّخذت لها في دارها خلوةً[1] سمَّتها : (محرابَ الدمع !) قالت : لأنَّها تبكي فيها بكاءَ صلاةٍ ، وحبٍّ ، لا بكاءَ حبٍّ فقط !

ثمَّ طاشت الطيشةَ الكبرى . . . ؟

* * *

قلت : وما الطَّيشة الكبرى ؟

قال : إنَّها كتبت إليَّ هذه الرسالة :

« عزيزي رَغمَ أنفي . . .

« لقد أذللتني بشيئين : أحدهما : أنَّك لم تذِل لي ، وجعلتني ـ على تعليمي ـ أشدَّ جهلاً من الجاهلة ، وقد نسيت : أنَّ المرأة المتعلِّمة تعرف ، ثمَّ تعرف مرَّتين : تعرف كيف تخطئ إذا وجب أن تخطئ ، وهذه هي المعرفة الأولى . أمَّا المعرفة الثَّانية ، فتوَهَّمها أنت ، فكأنِّي قلتها لك . . .

اعلم ـ يا عزيزي رغم أنفي ـ أنِّي إذا لم أكن عزيزتك رغم أنفك ، فسآتي ما يجعلك سلفاً ، ومثلاً ، وستكتب الصُّحف عنك أوَّل حادثٍ يقع في مصر عن أوَّل رجلٍ اختطفته فتاة . . . !

وبعد ، فقد أرسلت روحي تُعانق روحَك ، فهلاَّ تشعر ؟» .

قال : فوجمت[2] ساعةً ، وتبيَّنت لي خفَّتها[3] ، وظهر لي سَفاهُها ، وطيشها ، فأسرعت إليها ، فجئتها ، فأجدها كالقاضي في محكمته ؛ لا عقل له إلا

---

(١) « خلوة » : الخلوة : المكان المنفرد .

(٢) « وجمت » : وجم : سكت على غيظ .

(٣) « خفتها » : ضعف عقلها .

عقل الحكم القانوني ؛ الَّذي لا يتغيَّر ؛ ولا إنسان فيه إلا الإنسان المقيَّد بمادَّة كذا إذا حدث كذا ؛ والمادَّة كذا حين يكون وصف المجرم كذا . . . !

فقلت لها : أهذا هو العلمُ الَّذي تعلَّمتِه ؟ ألا يكون علم المرأةِ خليقاً أن يجعلَ صاحبتَه ذات عقلين إذا كانت الجاهلةُ بعقلٍ واحد ؟

قالت : العلم ؟

قلت : نعم ، العلم .

قالت : يا حبيبي ! إنَّ هذا العلمَ هو الذي وضع المسدَّس في يد المرأة الأوربيَّة لعاشقها ، أو معشوقِها ! ثمَّ أطرقت قليلاً ، وتنهَّدت ، وقالت : والعلم هو الذي جعل الفتاةَ هناك تتزوَّج بإرشاد الرِّواية الَّتي تقرؤها ، ولو انقلب الزَّواج روايةً . . . والعلم هو الذي كشف حجابَ الفتاة عن وجهها ، ثمَّ عاد فكشف حياءَ وجهها ، وأوجبَ عليها أن تُواجه حقائق الجنسِ الآخر وتعرفها معرفةً علميَّةً . . . والعلم هو الذي جعل خطأ المرأة الجنسي مَعفُوّاً عنه ما دام في سبيل مواجهة الحقائق لا في سبيل الهرب منها . . . والعلم هو الَّذي جعل المرأة مساويةً للرَّجل ، وأكد لها أنَّ واحداً وواحداهُما واحدٌ ، وكلاهما أوَّل . . . والعلم هو الَّذي عَرَّى أجسامَ الرِّجال والنِّساءِ ببرهان أشعَّةِ الشَّمس . . . والعلم يا عزيزي ! هو العلم الذي مَحا من العالم لفظةَ (أمسِ) لا يعرفها وإن كانت فيها الأديانُ والتَّقاليد . . .

* * *

قال صاحبها : فقلت لها : كأنَّ العلم إفسادٌ للمرأة ! وكأنَّه تعليمُ مَعَرَّاتها[١] ونقائصِها ، لا تعليم فضائلها ومحاسِنها . . .

قالت : لا ، ولكنَّ عقلَ المرأة هو عقلُ أنثى دائماً ، ودائماً عقلُ أنثى ، وفي رأسها دائماً جوُّ قلبِها ، وجوُّ قلبها دائماً في رأسها ؛ فإذا لم تكن مدرستها متمِّمةً لدارها ، وما في دارها ، تمَّمت فيها الشَّارع ، وما في الشارع .

العلم للمرأة ، ولكن بشرط أن يكون الأبُ وَهَيْبَةُ الأبِ أمراً مقرَّراً في العلم ، والأخ ، وطاعةُ الأخِ حقيقةً من حقائق العلم ، والزَّوج ، وسيادة الزَّوج شيئاً ثابتاً في

---

(١) « معراتها » : جمع معرة ، وهي : الإثم ، والمساءة ، والمكروه .

العلم ، والاجتماع ، وزواجرهُ الدِّينية ، والاجتماعية قضايا لا يَنسَخها العلم . بهذا وحده يكونُ النِّساء في كلِّ أمَّةٍ مصانع علميَّة للفضيلة ، والكمال ، والإنسانيَّة ، ويبدأ تاريخُ الطِّفل بأسباب الرُّجولة التَّامة ؛ لأنَّه يبدأ من المرأةِ التَّامَّة .

أما بغير هذا الشرط ، فالمرأة الفلاَّحةُ في حِجْرها طفلٌ قذِر هي خيرٌ للأمَّة من أكبر أديبةٍ تخرج ذُرِّيةً من الكتب . . .

انظر يا عزيزي رغمَ أنفي ! هذه الرِّسالة جاءتني اليوم من صديقتي فلانة الأديبة الـ . . . فاسمع قولها :

« . . . وأنا أعيشُ اليوم في الجمال ، لأنِّي أعيشُ في بعض خفايا الحبيب . .

« وفي الحياة موتٌ حُلوٌ لذيذٌ ؛ عرفت ذلك حينما نسيت نفسي على صدره القويِّ ، وحينما نسيت على صدره القوي صدري . . . » .

أسمعتَ يا عزيزي ؟! إن كنتَ لمَّا تعْلمْ : أنَّ هذا هو علمُ أكثرِ الفتيات المتعلِّماتِ ـ حين يكسَد الزَّواج ـ فاعلمهُ . ومتى عَمِي الشَّعبُ ، والحكومة هذا العمى ، فإنَّ حرِّيةَ المرأة لا تكون أبداً إلا حرِّية الفكرةِ المحرَّمة !

* * *

قلتُ لصاحبنا : ثُمَّ ماذا ؟

قال : ثمَّ هذا . . . ودسَّ يدَه في جيبه ، فأخرج أوراقاً كتب فيها روايةً صغيرةً ، أسماها (الطَّائشة) .

* * *